المحاضرة الأولى: الرابط الاجتماعي مدخل عام

ربظ دقل علم الاجتماع كحتمية لتحليل وتفسير الواقع الاجتماعي في ظل سياق تاريخي واجتماعي عاشته أوروبا، كالثورات السياسية والثورة العلمية والثورة الصناعية التي بشرت بميلاد مجتمع الحداثة.

وهو ما أدى لإنتاج قواعد علمية ومنهجية تؤسس لميدان علمي جديد، ولم يكن من السهل دراسة المجتمع دراسة علمية وهو متغير في الزمان والمكان، ما شكل تحديا للمؤسسين الأوائل للإجابة عن سؤال مدى علمية علم الاجتماع.

فالنشأة الحديثة لعلم الاجتماع واكبها جدل عميق حول المناهج والأطر العلمية، وكيف ندرس المجتمع دراسة علمية تتميز مناهجها ونتائجها بالدقة العلمية والموضوعية التي تتمتع بها العلوم الدقيقة.

إن تساءل علم الاجتماع لا ينتهي الا حين تكون الحياة الاجتماعية قد اكتملت دراستها، كعلم الاحياء "البيولوجيا" يحمل معه قوانينه الخاصة، وبهذا يكون كل شيء قابلا للبحث والنقد والمساءلة العلمية مهما كان دوره في المجتمع ، مؤسسة أم نظام أم شخص،بهذا المعنى نستطيع ان نقول ان علم الاجتماع هو ابن الثورة، وولد من رحم ثورات ثلاث.

لقد حققت العلوم الطبيعية والفيزيائية انتصارات في مجال الكشف عن القوانين المكونة للظاهرة الطبيعية. هذه الانتصارات التي حققتها العلوم الفيزيائية، والطبيعية، مارست إغراء على الفلاسفة والباحثين، دفعتهم إلى التفكير في إمكانية قيام علوم تستطيع دراسة الإنسان عبر المناهج نفسها التي تدرس بها العلوم الطبيعة.

وقد تبلورت هذه النزعة، في البداية، مع الفلسفة الوضعية، كما مثلها روادها المؤسسون، سواء **هربرت سبنسر، أو أوغست كونت وا إميل دوركايم**، ممن دافعوا عن إمكانية قيام علوم إنسانية وضعية، تدرس المجتمع الإنساني وتفسره، وتحلله تحليلا وضعيا، بعيدا عن الذاتية، واستنادا إلى خطوات منهجية، تقوم على الملاحظة الخالصة والتجريب الدقيق.

لكن الإشكال المطروح، هو هل يمكن موضعة الظاهرة الإنسانية؟ بمعنى، هل يمكننا عزل الظاهرة الإنسانية التي يتداخل فيها ما هو نفسي واجتماعي وثقافي، ودراستها دراسة موضوعية كما ندرس الموضوعات الطبيعية في العلوم التجريبية؟ هل يمكن أن يكون الإنسان وما صدر عنه من أفعال وسلوكيات وتصرفات موضوعا لدراسة علمية، مع العلم أن منتج هذه الأفعال الذي هو الإنسان يكون دارسا وموضوعا للدراسة؟

والحقيقة أن محاولات جادة قدمها الرعيل الأول لعلم الاجتماع من أمثال إميل دور كايم التي أجاب في كتابه "قواعد المنهج"، إلى ماكس فيبر واوغست كونت في كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية" لقد دافع كونت عن تأسيس علم اجتماع يستند إلى مبدأ السببية والملاحظة، وغايته الكشف على القوانين والعلاقات القائمة بين الظواهر، والى اليوم يبدأ عالم الاجتماع بالتساءل عن ماهية الاجتماع الذي يدرسه، كما لو أن مراجعة سابقة في ذهنه سبقت تساءله، أو كما لو أن كل جيل يحمل تصوراته الخاصة عن هذا العلم.

ويؤكد ريمون آرون في كتابه ثمانية عشر درسا حول علم المجتمع الصناعي أن علم الاجتماع يميز نفسهعن بقية العوم من خلال البحث المستمر، وان هذه الحالة من

عدم الاستقرار التي يعيشها علم الاجتماع دليل على الحيوية، وعللا ار تباط هذا العلم بالخحياة الواقعية للبشر، وأن الوعي الذطي يتساءل هو وحده جدير بأن يسمى وعيا.[1]

ومن هنا امتاز البحث في السوسيولوجيا بالتنوع المنهجي والتعدد في الاطر المعرفية، فالخطاب السوسيولوجي له علاقة بالمحيط الذي نشأ فيه، فعلماء الاجتماع معنيون بدراسة تطور المجتمع وتحولاته بشكل مزدوج؛ أولا من خلال وجودهم كأعضاء في المجتمع المعني وثانيا من خلال مهنتهم. وبهذا المعنى فان النظريات أيضا تتدخل في عملية تكوين المجتمع.[2]

الرابط الاجتماعي موضوع ذو أهمية وراهنية، لكن أيضا يجب أن نقر أنه موضوع قيد التشكل إذا تعاملنا معه كبناء وليس كمعطى رغم ما تملكه السوسيولوجيا من إسهامات في هذا المجال.

كما أنه لا يمكن الحديث عنه كنظرية متكامله بل نتلمس موضوعه وتحليلاته من خلال السياق المعرفي والنظري الذي تتناوله كل نظرية، فالنظرية السوسيولوجية تطرح العديد من وحدات التحليل وتنتقل بينها، فمن المجتمع إلى الجماعة إلى الفعل ثم الفاعلو الى البنية الى التفاعل الى الرابط الاجتماعي الى الحياة اليومية بتفاصيلها الدقيقة، وهذا الترتيب ليس على اساس زمني وليس متزامن، بل تتحكم فيه معطيات المجتمع وضرورات التحليل السوسيولوجي.

أيضا تعد عملية تقطيع نطاق علم الاجتماع الى تخصصات ومجالات صغرى من الحياة الاجتماعية كانت تحتاج أولا الى توضيح الركائز الثابتة والعامة لهذا العلم،

[1] جان ديفينيو: ترجمة فاروق الحميد، كمدخل الى علم الاجتماع،دار الفرقد، سوريا، 2011، ص 8
[2] يان سبارك: ترجمة حسن منصور الحاج، أي مستقبل لعلم الاجتماع، دار كلمة للنشر والتوزيع، الامارات العربية2009، ص 17

خاصة ان علم الاجتماع رغم كل العراقيل المعرفية والمنهجية التي واجهها كعلم ناشء قد تمكن من تحقيق الحد الأدنى من المبادئ النظرية والخصوصية الابستيمولوجية.[3]

من هنا جاءت أهمية الرابط الاجتماعي كحلقة تتقاطع فيها الرؤى النظرية والمداخل السوسيولوجية المتمايزة والمختلفة، كما يزداد أهمية كونه مرتبط بقضية التغير الاجتماعي في المجتمعات كافة.

إذن ستكون مهمتنا في هذا المقياس دقيقة وتعبر عن تجربة ثرية تضعنا أمام مفهوم غاية في الأهمية، الا وهو الرابط الاجتماعي، من خلال التعرف على ماهيته وكيفية توظيفه وسياقات التحليل التي استعمل فيها، خاصة وأن لابن خلدون الفضل في صياغة نظرية متميزة تعالج كيفية تشكل الدولة وعوامل نهوض المجتمعات وقوتها.

كما نعمل على تقديم قراءات للرابط الاجتماعي في ضوء ما قدمته السوسيولوجيا الغربية من الحداثة إلى ما بعدها، كما نتناول الدراسات الجزائرية التي حاولت قراءة حركة التاريخ في المجتمع وما يميزه من تغيرات وتحولات وفقا لهذا المنظور.

كما يعد وضع المفهوم في بعده العربي و استطلاع أهم ما قدم في هذا المجال غاية في الأهمية، نظرا لما تمتلكه المكتبة السوسيولوجية العربية من دراسات علمية تأثرت بحركة الترجمة واقبال الباحثين العرب على الحضارة الغربية.

[3] الطيب صيد: سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي، مطبوعة بيداغوجية، دار المعارف للطباعة، ط1، 2017، الجزائر ص 6